بحث عام | قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة | 01 أغسطس 2017

أدلوجة الخوف من الإسلام في المشروع الحضاريّ الغربيّ

محمد البوبكري
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

ملخّص:

تعدّ قضيّة «التّناظر»، المستندة إلى تصوّر الخطاب بما هو سلطة وقوّة، الأساس المميّز للصّراع الحضاريّ في الزّمن المعاصر، ويمكن اختزال مظاهر هذا الصّراع الحضاريّ، في إطار قوّتين تمثّلان أفقيّن تاريخيّين متشابهين من حيث بعض مقوّماتهما الدّينيّة، متمثّلة في المشترك التّوحيديّ، ومتباينين - في نفس الوقت - من حيث المطامح السّياسيّة، والرّغبة في تحصيل الكونيّة والهيمنة، يتعلّق الأمر - هنا - بالعلاقة «التّاريخيّة» الملتبسة، الّتي نشأت بين «الإسلام» و«المسيحيّة» في عهود مضت، الّتي استثمرت وحُوّلت إلى تفكير وتدبّر في «التّراث» الثّقافيّ للإسلام، يُنظر إليه من النّاحية السّياسيّة، وهي العمليّة الّتي تبلورت في مجال الدّراسات الاستشراقيّة، ونضجت - فيما بعد - في ميدان الإسلاموفوبيا على أنّها مدخل مباشر للهيمنة السّياسيّة، إذا نحن استثنينا العلاقة بين الإسلام واليهوديّة - كونها دين توحيديّ؛ الّتي كانت ترتكز على شكل من أشكال الصّراع الّذي لا يمكن أن نعدّه سياسيًا؛ بل صراعًا قائمًا على تنازع المقدّس أو الاعتراف - إذا صحّ هذا التّعبير - بشكل من أشكال «القدسيّة» على صعيد التّأويل الدّينيّ، إذا استثنينا هذا الجانب الحضاريّ بين هاتين الدّيانتينّ، فإنّ مجال تبيان مظاهر الهيمنة الحضاريّة وتجلّيتها، إنّما يرتبط «بالإسلام» و«الغرب المسيحيّ»؛ وبين ذلك في أشكال التأويلات المتناظرة، وتنازع القيم والصّدامات الحضاريّة، ودعاوى الكونيّة والخوف الحضاريّين، وهكذا، فقد عدّت قضيّة «التّناظر» في هذه الورقات بنية نظريّة وتكوينيّة مسبقة، أعني؛ سابقة على صراع الحضارة نفسه، ترمي بثقلها وجبروتها على توجه حضاريّ، يبثّ نوعًا من أدلوجة الخوف المتبادل بين «الإسلام» و«الغرب المسيحيّ».

لم نقف موقفًا دفاعيًا عن الإسلام إزاء الغرب المسيحيّ؛ بل اكتفينا بما تمليه الضّرورة التّاريخيّة من هيمنة الغرب على الشّرق، كما بيّن ذلك إدوارد سعيد وغيره من المستشرقين.

يُبني المقال - إذن - على الاعتقاد بوجود صراع حضاريّ ذو روح استشراقيّة جديدة، تتمثل في نزعة إسلاموفوبية، قائمة على أسس خطابيّة وسرديّة، تقيم بعدًا تناظريًا معمّمًا بين كونيّة الخوف وكونيّة النّموذج الغربيّ المسيحيّ، القائمة على الحرّيّة والنّزعة الإنسانيّة، والتّحقّق الجوهريّ لفكرة التّاريخ.

على سبيل التّقديم:

تروم هذه الورقة تسليط الضّوء على المشروع الغربيّ، ذي الرّوح الاستشراقيّة في أوج تطوّرها في الزّمن المعاصر، وتنطلق الفرضيّة - المعتمدة في هذا البحث - من محاولة بسط الفكرة القائمة على النّزوع الغربيّ الدّائم إلى التّمركز حول ذاته، في «تشويه» المشروع الحضاريّ والثّقافيّ للآخر، الّذي يمثّله الإسلام في الآونة الأخيرة، بعد أن كان الغرب - بالأمس القريب - في منازعة باردة مع الشّيوعيّة والصين وأمريكا اللّاتينيّة، وإذ نقرّ بسمة التّشويه كآليّة حضاريّة للغرب في بسط نزعته الكونيّة تجاه الإسلام؛ فإنّنا لا نستبعد - البتّة - وجود دراسات استشراقيّة غربيّة إيجابيّة، اتّخذت من الإسلام الموضوعيّ مظهرًا لكونيّة إنسانيّة قائمة تاريخيًا وحضاريًا.

وهكذا، يمكن أن نعدّ نموذج «الخوف» المتبادل بين الغرب والإسلام، نتاجًا لشكل من الصّراع الحضاريّ ذي الرّوح الاستشراقيّة، يروم خلخلة بنية الوعي الإسلاميّ وتفتيت دعاواه، بالتّالي؛ تقديس الرّؤى والقيم الغربيّة على حساب الإسلام.

إنّ الصّراع الحضاريّ القائم على آليّة الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب، والدّعوة الدّائمة لكلّ طرف من الطّرفين إلى تبخيس دين الآخر؛ هو من القضايا المركزيّة الّتي تروج اليوم وتشتهر، لتطهير دين كلّ طرف من الشّوائب الّتي يمكن أن تعلق به نتيجة التّأثّر الحضاريّ، نشير - في هذا الإطار - إلى التّطوّر الهائل للتّنصير والدّعوات التّبشيريّة للمسيحيّين في ديار الإسلام من جهة، ومن جهة ثانية؛ حصر الدّين الإسلاميّ للمسلمين المعاصرين في مجموع الطّقوس الّتي يتداولونها، وذلك بنسيان النّصوص التّأسيسيّة والنّظرية للتّطبيق الإسلاميّ، وفي المقابل؛ لا يجد المسلمون حرجًا يذكر في تخويف المؤمنين من فساد الدّيانات المجاورة (المسيحيّة واليهوديّة)، الّتي لحقها - ما لحق الدّيانات السّابقة على الإسلام - من نفخ تاريخيّ مضاف على بقايا وآثار الوحي الإلهيّ المنزّل، ممّا يدفع إلى التّسليم بضرورة تجنّب هذه الدّيانات؛ الّتي كانت أصيلة، ثمّ أصبحت رهينة بمطامح الإنسان نفسه، الإسلام وحده في منظور المسلمين - قديمًا وحديثًا - يستعصي على النّفخ التّاريخيّ؛ لأنّه محفوظ بحفظ الله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[1]، على أنّنا إذا استثنينا ظروف الإصلاح الدّينيّ وسياقاته، وتطوّر الوعي الدّينيّ في المسيحيّة - خاصّة - الّذي أملته ظروف تاريخيّة داخليّة، ارتكزت على تجديد المسيحيّة اجتماعيًا وسياسيًا، فإنّه يمكن التّأكيد - تبعًا لذلك - أنّ المستوى «التّناظريّ» على صعيد بناء الحضارة، وتصوّرها بين «المسيحيّة» و«الإسلام»، يرتكز على أسس نظريّة مغايرة تضطّلع بمهمّة خلق دعاوى التّناظر بين الحضارتين.

1- [الحجر (15): (9)].

وهكذا، يمكن الانتهاء إلى نتيجة - يمكن أن تكون - احتماليّة، هي؛ أنّ الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب، يستند إلى جملة من التّصورات والتّمثلات الّتي يمكن أن ندرجها في مجال أدلوجة فكريّة قائمة بذاتها، تستهدف بناء مشروع حضاريّ متمركز على ذاته، يحتكر الحقيقة لنفسه، ويعدّ كل ما عداه من الحقائق وهمًا.

وإذ نستعمل مفهوم الأدلوجة[2] هنا؛ فإنّنا نضمّنه معاني كثيرة، أبرزها: مفارقة الفكر لما هو واقعي، قوامها تشويه الحقائق الواقعيّة وقلبها وتمثيلها، وأيضًا؛ «الأشكال القانونيّة والسّياسيّة والدّينيّة والفنيّة والفلسفيّة»[3]، المتوارية في نسق معين للهيمنة، ومن ثمّ؛ فهي تشكّل «الإنتاج الحضاريّ الأكثر تميّزًا»[4]، كما عدّها جورج غورفيتش (Georges Gurvitch)، من المعلوم أن كارل ماركس - نفسه - هو الّذي منح للأدلوجة مستواها التّعميمي؛ حيث يؤكّد أنّ هناك أشكالًا متبقيّة لمفهوم الإيديولوجيا، تتمثّل في القانون، والسّياسة، والأفكار، والتّمثّلات، وأشكال الوعي الّتي يكوّنها الإنسان عن الأشياء والمجتمع، ومن جهة اللّغة الّتي تدمج هذا الإنتاج الروحيّ على صعيد الفكر والعمل[5]، هذا المعنى السّالب أو السّلبيّ للأدلوجة؛ هو الّذي رسّخ في التّراث الماركسيّ - بكلمة استلاب (Aliénation)، هو نفسه الّذي يؤسّس للمستويات «التّناظريّة»، على صعيد بناء الحضارة، وترسيخ كينونتها في إطار نظام معياريّ خاصّ أو عامّ.

فأيّ دور يمكن أن تلعبه الأدلوجة في إطار الخوف من الإسلام؟ وما علاقتها بالحضارة؟ وهل يمكن للأدلوجة - رغم كونها قائمة على التّشويه والقلب والتّمثّل - أن تكون آليّة من آليّات الحضارة بالفعل؟ وما هو الموقع الّذي تحتلّه النّزعة الاستشراقيّة الجديدة ذات الطّابع السّياسيّ في ترسيخ أدلوجة الخوف من الإسلام؟

*****

لا حضارة من دون «تناظر»[6]، وبالمثل؛ لا حضارة من دون وجود طرف متقابل، وإذ نتحدث - هنا - عن الحضارة، نضمّنها معنيين؛ معنى مشتهر يفيد كلّ الجوانب المادّيّة الّتي ينتجها شعب من الشّعوب، سواء بصفة منعزلة أو في علاقة مع أمم أخرى. معنى ثان يفيد الجوانب الرّمزيّة الّتي نصطلح عليها إجمالًا

2- انظر: العروي عبد الله، مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثّقافيّ العربيّ، ط 5، 1993م.

3- Oeuvres de Karl Marx, Bibliothèque de la Pléiade, Paris, Gallimard, 1963, Vol. 1, p. 273.

4- Georges Gurvitch. La vocation actuelle de la sociologie, Paris, Presses universitaires de France, 1963, vol. 2, p 285.

5- Karl Marx, Idéologie allemande, cité d'après les Oeuvres philosophiques de K.Marx, traduites par J. Molitor, Paris, Alfred Costes éditeur, 1937, vol. 6, en parti-culier, p p 156-158.

6- بعض المدارس الحضاريّة، ترى أنّ غروب شمس الحضارة في مكان، يعني بزوغها في آخر، وهو تصوّر ينطبق- على وجه التّدقيق- مع التّصوّر الهيجليّ لروح التّاريخ وفكرة الحريّة.

بالثّقافة، سواء كانت عالمة أو متوحّشة، بالمعنى الأنثربولوجيّ، بيد أنّ هذين المستويين لا يمثّلان، إلّا جزءًا ضئيلًا من تصوّرنا لمعنى الحضارة المنظوريّة في اصطلاحنا.

تقدّم الدّراسات الاستشراقيّة - الحديثة والمعاصرة - إلينا مجالًا واسعًا للتّأمّل في مجالات: التّناظر، وأشكال التّباينات المشيّدة الّتي نشأت - أو تكون نشأت - بين الغرب والإسلام، وتمتدّ بجذورها إلى حقول تفكّريّة متشعّبة، تبدأ منذ اللّقاء الأوّل بين الحضارتين، ويشير القرآن الكريم - مثل ما تشير بقيّة الكتب المنزّلة - إلى الوضع الّذي سيكون عليه الإسلام النّاشئ، الّذي هو آخر الدّيانات تنزيلًا، وحيثما يوجد نصح أو دعوة إلى الحوار، يكون خلاف وتناظر في التّأويل وفي بناء الحضارة، وتشير الآية القرآنية وآيات مماثلة إلى ميدان «التّناظر» بين الغرب والإسلام؛ حيث يقول الله عزّ وجلّ: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[7]، لا شكّ في أن الكلمة الأساسيّة في الآية (جدال) تدلّ - أو لنقل - تصوّر لنا - تصويرًا دراماتيكيًا - الحالة التّأويليّة بين الإسلام والغرب: أهل الكتاب قديمًا وأوروبا حديثًا، بيد أنّ من الواجب التّمييز - كما سنبيّن فيما بعد - بين المسيحيّة واليهوديّة - على أنّهما نسقين تأويليّين متباينين؛ إنسيّة حضاريّة مقدّسة مثّلتها اليهوديّة، وإنسيّة حضاريّة سياسيّة مثّلتها المسيحيّة.

نستبق القول: إنّ حالة التّناظر بين الغرب والإسلام، لا تعطي نتيجة أوضاع معاصرة، أو إن محرّكها أوضاع راهنة؛ إنّما هي نتاج لصراع حضاريّ طويل الأمد، يمتدّ إلى ما قبل عهد النّبوّة - الخوف من بعثة نبيّ جديد - من بيئة جديدة وعرق جديد، يأخذ الشّهرة من أهل الكتاب (اليهود)، على أن هذا النّمط من الخوف ينطبق - كما قلنا - على اليهوديّة، أكثر ممّا ينطبق على المسيحيّة، الّتي شكّلت النّموذج الأكثر شيوعًا للصّراع مع الإسلام سياسيًا وثقافيًا.

وهكذا، حيثما يوجد «تناظر» يوجد حصر وتأويل، وإذا كان التّأويل لا يفيد - في بعض الأوضاع - في تحقيق الغرض، خاصّة عندما تكون الحقائق ساطعة، فإنّه يوجد تشويه.

1 - أنموذج الخوف من الإسلام وبناء عالميّة الغرب المسيحيّ:

أعتقد أنّ خاصيّة «التّشويه» الّتي ترتبط بالمستوى التّصوريّ، قد عادت إلى دائرة الدّين مرة أخرى، يتعلّق الأمر - في هذا المستوى - بمسألة جديدة في بناء الحضارة، هي؛ الإيديولوجيا، على أنّنا ينبغي أن نعير انتباهنا في مسألة الإيديولوجيا إلى وظيفتها المزدوجة؛ فهي من جهة: تبخيس دعاوى وأفعال المخاطب، ومن جهة: تثمين دعاوى وأفعال المتكلّم، تكمن - هنا - أهميّتها المركزيّة في بناء مشروع حضاريّ متميّز،

7- [سورة النّحل (16): 25].

والمحافظة عليه، سلك الغرب هذا المسلك في مواجهة الإسلام، دينيًا وثقافيًا وسياسيًا بكيفيّة تطوّريّة، إسلام واحد لأشكال مختلفة من «التّناظرات».

هناك علاقة جوهريّة تقوم بين ظاهرة الخوف من الإسلام ومسألة الأدلوجة، علينا أن ننظر إليها من زاويتين: مستوى «إنجازيّ» يرتبط بأفعال أفراد منعزلين منتمين إلى هذه الثّقافة أو تلك (ثقافة منظوريّة)، ومستوى «تصوريّ» مماثل لما دأب عليه المستشرقون في تصورهم للشّرق كإنشاء[8]، على أننا ينبغي أن نميّز - في نفس الوقت - المجالات الّتي يشملها التّفكير الإيديولوجيّ - اليوم - حول الإسلام؛ فإذا استثنينا المجال الرّوحيّ والعقائديّ، أمكننا القول: إنّ المجال الّذي عليه يعوّل التّفكير الأدلوجيّ للغرب؛ هو المجال نفسه الّذي عليه مدار اختلاف المسلمين؛ كقضية الجهاد، وأمور الخلافة والرّئاسة، ومنزلة الدّين بين المجتمع والسّياسة، ومسألة العلمانيّة وما في معناها، وحالة اللّاتجانس بين المسلمين والإسلام الحقّ، ..إلخ، وإذا كان جليًا أنّ ميدان «الحصر» يهمّ الميدان الثّقافيّ، أعني؛ ثقافة منظوريّة من حيث كونها تصوريّة؛ فإنّه يمكن أن نفترض تصورًا «للكونيّة» يستند إليه الغرب، يكون مماثلًا لتسييل الكونيّة الاقتصاديّة في معناها اللّيبراليّ، الّتي وصلت مراحلها الأخيرة في هذا العصر، كما يمكن أن نفترض - من جهة ثانية - واعتمادًا على تصوّرنا للثّقافة «المنظوريّة» أنّ الأمر يتعلّق بكونيّتين مبنيّتين تصوريًا: إحداهما ترتبط بالمشروع الحضاريّ الغربيّ، نسمّيها؛ عالميّة النّموذج الغربيّ، من منظور حاملها الّذي هو الغرب، والمرتبطة بروح استشراقيّة جديدة (Néo - orientalisme)، والمفعمة بإرادة سياسيّة للهيمنة، والمتعلّقة بتجديد أسس الاستشراق الحديث في ربطه بأهداف عمليّة خفيّة، توازن بين إرادة المعرفة (على أنها سلطة) والمصلحة. ثانيهما: «كونيّة الخوف»؛ الّتي يلصقها الغرب بالإسلام - أو بالمسلمين بقول أدقّ، ويعتقد أنّ النّقطة المفصليّة بين استشراق تخصّصي حديث، نقصد هنا - بمعنى أدقّ - نمط الاستشراق الّذي ينزع نحو بناء نظام للمعرفة الثّقافيّة في الشرق، واحتوائه من طرف الغرب، وآخر جديد؛ أحداث الحادي عشر من سبتمبر (9/ 11)، والحرب على الإرهاب الّتي نسجت فيها علاقة، أقلّ ما يمكن أن نقول عنها: مضطربة من حيث محرّكها والباعث على نشوئها الباطنيّ.

لا شكّ في أنّ وضع الصّراع الحضاريّ - بين الغرب والإسلام - قديم بالنّسبة إلى هذا التّاريخ، بيد أنّه من الواجب وضع إطار منطقيّ - أو نقطة التقاء - لهذا الصّراع القديم/ المعاصر، وبالنّسبة إلى الاستشراق الجديد؛ فهو ينبني - بالضّرورة - على أشكال التّرسبات الّتي كان قد هيأها الاستشراق القديم والحديث، أعني؛ الوعي الأوّلي بأشكال المفارقات والتّناظرات الموضوعيّة؛ بين الشّرق والغرب حديثًا، والغرب والإسلام في الزّمن المعاصر، على أنّ «النّزعة الاستشراقيّة الجديدة» تبنى على أسس دينيّة - سياسيّة، منظورًا إليها من زاوية أحاديّة الحضارة؛ أي تعميم نموذج أحاديّ، وتعميم آخر مخالف للأوّل.

8- سعيد إدوارد، الاستشراق. المعرفة. السّلطة. الإنشاء، تعريب: كمال أبو ديب، مؤسّسة الأبحاث العربيّة، ط 7، 2005م.

يرى بعض المهتمّين[9] بقضايا الإسلام - فوبيا، أنّ تبيّن طبيعة العلاقة بين الغرب والإسلام في هذا الإطار - تحديدًا - يتطلّب «رؤية نقديّة بصدد بناء المعرفة حول المسلمين، وتبيان طرق اشتغالها كجزء لهيمنة خطاب الاستشراق»[10]، وقد شكّل خطاب الرئيس الأمريكيّ (جورج دبليو بوش G.W.Bush، ولد سنة 1946م) - إبّان أحداث 11 سبتمبر - أنموذجًا؛ بل خلاصة متينة لخطاب الحضارة والثّقافة الغربيّة التّواقة إلى الهيمنة، خطاب تناظريّ يقيم المزاوجة الوجوديّة بين نموذجين متناقضين، بُنيا على أسس «تناظريّة»: خوف/ سلام، خير/ شرّ، ضحيّة/ جلاد، عالم متحضّر/ عدوّ ..إلخ، تأويلات ناتجة عن تفكيك خطاب «الخوف الحضاريّ»؛ الّذي اختزله خطاب جورج دبليو بوش الاستشراقيّ الجديد الموجّه؛ إذ يقول: «هناك مسلكان وحيدان؛ إمّا أن تكون معنا نحن [الغرب]، أو أن تكون مع الإرهابيّين»[11].

يكاد لا يخفى المنهج الاستشراقيّ الجديد الّذي يدلّ عليه خطاب بوش، أعني؛ ما ينطوي عليه هذا الخطاب السّياسيّ الموجّه من أسس نظريّة تناظريّة، يمثّلها - دون أدنى شكّ - خبراء في «خطاب الاستشراق»، ومتخصّصون في الأديان، ذووا معرفة عميقة بقضايا الإسلام الخاصّة والعامّة، فإذا أخذنا المستوى التّناظريّ الأوّل الّذي تدلّ عليه كلمة «نحن»، وجدناه يدلّ - بكثافة - على العالم الحضاريّ المعتدل، الباعث على الطّمأنينة، والحرّيّة، والرّخاء، والتّعقل، وجهة التّاريخ الحقيقيّ ونهاية اكتماله، أمّا الآخر؛ فهو «الإرهاب» مصطلح جامع لكلّ أشكال التّوجّس والخيفة واللّاتعقل. تبدو الهيمنة - وفق هذا التّصوّر - متمفصلة مع شكل من أشكال علاقات القوّة، المرتبطة بنسق للمعنى الخطابيّ.

يمتنع - في الغالب - أن نتفهّم قضيّة الأدلوجة، في علاقتها بالخوف، ما لم نتمكّن من الإمساك بناصية المنطق الخطابيّ، المتضمّن - بشكل أوّليّ - علاقة قائمة على السّيطرة والقوّة والإنشاء والتّمثيل، كما أكّد ذلك إدوارد سعيد.

نجح المنهج الاستشراقيّ الجديد - دون أدنى شكّ - في ربط الصّلة بين الإسلام والإرهاب، أو - على الأقل - النّظر إلى «الإرهاب كونه مشكلة دينيّة»[12].

9- انظر:

- Uzma, Jamil, Reading power: Muslims in the war on terror discourse. Postdoctoral research fellow at the international centre for muslim and non-muslim understanding at the university of south Australia. Islamophobia studies journal. Volume 2, no.2, Full, 2014.

- Wolf, Maxie, orientalism and islamophobia as continuous source of discrimination, study program,2015,

10- Uzma, Jamil, Reading power: Muslims in the war on terror discourse. Postdoctoral research fellow at the international centre for muslim and non-muslim understanding at the university of south Australia. Islamophobia studies journal. Volume 2, no.2, Full, 2014.p p 30-31.

11- Ibid,.p 31.

12- Ibid,.p p 32- 33.

لا تهمّنا نتائج هذا الرّبط، مثلما لا تهمّ - في نظرنا - المستشرقين أنفسهم؛ إذ إنّ تقييم النّتائج موكول إلى المسلمين أنفسهم، إلى وعيهم الحضاريّ، وهو يتّهم الإسلاميّة، على أنّنا يمكن أن نميّز - في المنهج الاستشراقيّ الجديد نفسه - بين نزعتين: إحداهما ذات سمة ثقافيّة متمركزة في الزّاوية المنظوريّة فقط، والأخرى؛ أمريكيّة ذات سمة كونيّة - سياسيّة، تسعى بجهدها إلى تعميم أنموذج أحاديّ مركّب، بيد أنّ بلورة هذا الأنموذج الحضاريّ - نفسه - من الزّاوية الإيديولوجيّة، لا يكتسب مشروعيّته ونضجه إلّا بعد الوعي بالأساس «التّناظريّ»؛ الّذي تتماهى فيه العلاقة الخفيّة بين القوّة والمعرفة، الّتي عليها مدار هيمنة الخطاب «الاستشراقيّ - الجديد».

2 - أنموذج الخوف من الإسلام كمشروع حضاريّ لهيمنة الغرب المسيحيّ:

شكّل كتاب ساموىل هانتنغتون (S.Hantunington) (صدام الحضارات Clash of civilization) تدشينًا لخطاب نظريّ «تناظريّ»، يعتمد على «براديغم الخوف من الإسلام»، أو قل: «كونيّة الخوف» في مقابل «كونيّة وحدويّة أمريكيّة» تدّعي الحرّيّة والعدل الإنسانيّين، الّذي ضمن فيه الوضعيّة الجديدة للإسلام مع الغرب، والتّأكيد على كونه يشكّل العدوّ الجديد للغرب ثقافيًا وسياسيًا، كما أنّه لا تهمّنا نتائج هذا الاستشراق الجديد بعينه - كذلك - لا تهمّنا ذهنيّة المستشرق نفسه، ذلك أنّ ما يهمّنا في المقام الأوّل: هو الأثر الّذي تخطوه المعرفة، وما تصبو إلى أن تكون عليه، هذا إذا استثنينا - بالطّبع - «الاستشراق» الموجّه نحو مقاصد شريفة، تروم استهداف المعرفة بوصفها اكتشافًا وسبرًا لأغوار الثّقافات المغايرة، مع الاعتراف لها بخصوصيّتها وكونيّتها.

لا يخفى أنّ للعامل الثّقافيّ الموضوعيّ دوره في سيرورة هذا التّمايز الحضاريّ؛ بين الغرب والإسلام على صعيد القيم، ودلالة الحرّيّة، وعلاقة الدّين بالسّياسة؛ تركيا وماليزيا وبروناي تشكل النموذج الأوحد - تقريبًا - للدّمج بين قيم الغرب والثّقافة الإسلاميّة على مستوى الفعاليّة السّياسيّة.

تبقى نقطة التّمفصل بين الثّقافة والسّياسيّة، خاضعة لإرادة الهيمنة ولأشكال التّأويلات الّتي يعطيها الغرب للإسلام «التّصوريّ» و«الوقائعيّ»، بكيفيّة متوازية، هذه رؤية ميشال فوكو وإدوارد سعيد، سنتّخذها مرجعيّة نظريّة، كلّما تطلّب التّأويل تبيين العلاقة بين القوّة والمعرفة.

يمثّل الخوف من الإسلام مرحلة جديدة من الصّراع الثّقافيّ - الحضاريّ؛ الّذي يتّخذ مظهرًا سياسيًا، يروم الهيمنة (Hegemony) على أساس منظورين، هما؛ الإسلام والحداثة، ولا تكاد تحصى أشكال التّناظرات والتّوليفات الّتي تنسج - ثقافيًا - في هذا المجال.

قوّة الثّقافة، أو لنقل: «الثّقافة الإمبرياليّة» عصر جديد متماسك البنيان، يجد الدّين مرتكَزًا متينًا لقوة الثّقافة وجاذبيتها، مجمل المفكّرين المهتمّين بتطوّر الثّقافة المنظوريّة، ومن بينهم؛ إدوارد سعيد، يتّفقون على أنّ عصرنا هو عصر ثقافة رمزيّة بالمعنى السّياسيّ.

يميّز إدوارد سعيد في كتاب «الثقافة والإمبرياليّة» (Culture and imperialism) - بدقّة - بين إمبرياليّة قديمة مباشرة، وبين أخرى جديدة متأصّلة في الممارسة الاجتماعيّة والسّياسيّة والإيديولوجيّة، دشّنها خطاب بوش الشّهير[13] بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م.

لا يمكن للإيديولجيا المنظوريّة (كمفهوم تاريخيّ - اجتماعيّ) إلّا أن تكون فعّالة في هذا الميدان؛ إذ تسعى بكل جهدها إلى التّوفيق بين المعرفة والمصلحة، ومادام الأمر يتعلّق - بشكل أو بآخر - بالخطاب نفسه؛ فإنّه يجوز لنا أن نعدّ خطاب «الإرهاب»، وما يدور في فلكه من مصطلحات دينيّة ونفسيّة، نسخة منقحة لاستشراق جديد، يستهدف الدّمج بين الخوف والدّين، وإيديولجيا سياسيّة متخفّية في «خطاب الإرهاب».

في هذه النّقطة بالذّات؛ يمكن أن نأخذ بعين الجدّ تصوّر (نعوم تشومسكي) لدلالة الإرهاب؛ إذ يقول على لسان الرّئيس الأمريكيّ ريجان: «إنّ الإرهاب هو الاستخدام المحسوب للعنف، أو التّهديد بالعنف للوصول إلى أهداف لها طبيعة سياسيّة، دينيّة أو إيديولوجيّة من خلال التّرهيب، والإجبار، وبثّ الخوف»[14].

إضافةً إلى الدّلالة الخطابيّة (من خطاب) مفهوم الإرهاب في هذا التّعريف؛ فإنّ ما يبدو أكثر دلالة وأهميّة: هو المستوى «التّصوريّ» نفسه، الّذي يربط المعنى بالهدف الّذي هو الهيمنة الحضاريّة، ذاك ما عبّر عنه تشومسكي عندما قال مضيفًا: «إنّ الحرب على الإرهاب، الّتي أُعلن عنها من قبل الولايات المتّحدة بعد الحادي عشر من سبتمبر؛ هي حرب معلنة للمرّة الثّانية، أمّا الإعلان الأوّل؛ فقد بدأ منذ عشرين عامًا، عندما قدم «ريجان» إلى الرّئاسة الأمريكيّة، معلنًا أنّ الحرب على الإرهاب ستصبح أساس السّياسة الخارجيّة الأمريكيّة - خاصّة - الإرهاب الدّوليّ الّذي تقف وراءه الدّول، الّذي يعدّ «أشرس أنواع الإرهاب»[15]، ليس هدف هذه الورقة تتبّع ملامح السّياسة الخارجيّة الأمريكيّة، بقدر ما يتعلّق الأمر بالمستوى التّناظريّ: «كونيّة الخوف الإسلاميّ المجسد خطابيًا» في مقابل «كونيّة إنسيّة حضاريّة غربيّة، ذات أسس استشراقيّة جديدة».

13- بطبيعة الحال؛ هو واحد من مظاهرها، انظر- مثلا- موقف ألمانيا وفرنسا- خاصّة- من انضمام تركيا للاتحاد الأوروبيّ.

14- تشومسكي نعوم، أوهام الشّرق الأوسط، تعريب: شيرين فهمي، مطبعة فضالة، 2006م، ص 88.

15- نفسه، ص 87.

سمحت أحداث الحادي عشر من سبتمبر ببعث خطاب الخوف في نفس الإنسان الغربيّ، الّذي يتمثّل بمعرفته الضئيلة خبايا العالم العربيّ، ومكّنت - في الوقت نفسه - الولايات المتحدة الأمريكيّة من «أدلجة» مشروعها الحضاريّ الخطابيّ، المستند إلى (الفوقيّة الثّقافيّة Cultural superiority).

هذه الفوقيّة الثّقافيّة مرتبطة أشدّ الارتباط بالمصالح الاقتصاديّة؛ حيث يمكن أن نعدّ المحرّك الاقتصاديّ بمثابة البنية التّحتيّة لمشروع الحضارة الغربيّ، الّذي يترجم خطابيًا في السّياسة والثّقافة، والتّصادمات الدّينيّة (Religious clashes) المنبعثة في الشّرق الأوسط، مهد الوحي، ورسوخ الدّين التّصوري والوقائعيّ.

يظهر هنا - إذن - الفارق بين ملامح نزعة استشراقيّة تأسيسيّة، ذات أبعاد ثقافيّة - تأويليّة، تستهدف «التّشويه» الثّقافيّ لمعالم الآخر وحضارته، بغرض تحقيق مركزيّة الغرب، وهذا ما حدث بالفعل في أوروبا المسيحيّة، وبين نزعة استشراقيّة جديدة ذات أهداف إمبرياليّة خفيّة، تستند إلى «التّخويف» بدل «التّشويه»، وهذه المرّة ليس بغرض تحقيق مركزيّة معينة؛ إنّما لبلورة كونيّة مهيمنة تسعى بكلّ جهدها إلى تغليب المستويات التّصوريّة على الجوانب الواقعيّة الحقيقيّة.

يحتلّ التّفكير الأدلوجيّ مكانة متميّزة في هذه السّيرورة التّصوريّة؛ فعلى عكس التّصوّرات الفكريّة الّتي ترجع «التّناظر» بين الإسلام والغرب إلى عصر العولمة، والتّنوع الثّقافيّ المرتبط بالهجرة الدّوليّة، بالتّالي؛ بروز ظاهرة الخوف من الإسلام (الإسلامفوبيا) نتيجة طبيعيّة لأزمة التّعايش، والانتقام، والنّكران، والرّفض، ولفكرة التّسامح نفسها؛ بوصفها مخرجًا اضطراريًا وضروريًا، بين الهويّتين الثّقافيّتين، على العكس من ذلك؛ يمكن التّدليل على أن التّفكير الأدلوجيّ - فيما يتعلّق بقضية الخوف من الإسلام - سابق زمنيًا على الأحداث الجارية في المجتمع المعاصر؛ بل يمكن القول: إنّه إحياء جديد للصّراع الثّقافيّ، حول إمكانيّة تأسيس مثاليّة إسلاميّة سياسيّة تستند إلى الدّين، ويعتقد - في هذا المستوى - أنّ الخوف من الإسلام يرتكز إلى جوانب دينيّة - خاصّة - تلك الّتي يمكن أن تترتّب عنها أسس معياريّة، توجّه سلوك المسلمين، وتنمّي لديهم القدرة على منافسة الإنسان الغربيّ ثقافيًا وسياسيًا.

ممّا لا شك فيه؛ أنّ الخوف من الإسلام - كما أشرنا سلفًا - قد برز بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، بيد أنّنا نميل إلى اعتبار المجال «السّرديّ»، بوصفه إنتاجًا نظريًا خالصًا يؤسّس ويقصد شيئًا ما، و«الخطابيّ»؛ الّذي بلوره - على الأقل - ساموئيل هنتغتون، قابلًا للدّمج في الفرضيّة العامّة الّتي كانت منطلق هذا البحث، وتحاول تبيان الدّور الحاسم لخطاب الخوف على واقع الخوف في ذاته، وعلاقته بمشروع الحضارة الغربيّة، وليس من الممكن حصر الأبحاث الّتي تغلب هذا الجانب، على ما عداها من التّأويلات الّتي تستند على - ما يبدو أنّه - جبل الثّلج، وتنأى بجهدها عن التّفكير في باطن هذا الجبل، ويسمح المستوى السّرديّ الّذي يبني عليه هذا النّهج الاستشراقيّ الجديد، بتحقيق وظيفتين متتابعتين؛ من جهة أولى:

يقدّم إلأى الغرب نماذج لفهم قيم وتراث المسلمين، ومن جهة ثانية؛ يسمح ببثّ الخوف في بعض مكوّنات هذا التّراث الإسلاميّ، بربط الحاضر بالماضي الثّقافيّ للمسلمين، تُضاف إلى ذلك؛ القدرة «السّرديّة» الفائقة على الولوج المرن؛ من الثّقافة إلى السّياسة (من التّصوّر إلى الإنجاز)، كلّما استدعت الحاجة ذلك، على أنّ الإيديولوجا - نفسها - لا يمكن أن تنبعث، في هذا الإطار، إلّا بشرط نضج هذه المعرفة الثقافيّة - نفسها - الّتي تتضمّن - على الدّوام - توجيهات إيديولوجيّة بصدد واقع المسلمين من جهة، والإسلام التّصوّريّ من جهة ثانية، أعني؛ الإسلام في نشأته الأولى، الّذي يعدّ محطّ تأويل المسلمين والغربيين في الوقت نفسه، ومن الجليّ - هنا - أنّ المعرفة الّتي ينشئها الغرب عن الإسلام، تكون - في عمومها - سلبيّة، وتروم تكوين أكبر عدد من التّأويلات، والمعلومات المتضاربة عن الإسلام وواقع المسلمين، وبرصد تطوّرات التّفكير الأدلوجيّ - منذ ماركس إلى اليوم - يتبيّن لنا أنّ التّشويه يلحق الصّور السّرديّة الثّقافيّة - بالذّات - الّتي عليها مدار الصّراع بين الإسلام والغرب، حين تتحوّل المعرفة بشأن الإسلام إلى صور نمطيّة (Stereotypes) ومتخيّلة، تخدم أهداف الحضارة المهيمنة.

يتبدّل نمط المعرفة؛ من كونها قائمة على التّخيل والإنشاء، أو المعرفة كإنشاء، وهو الخطاب السّرديّ الّذي عدّه المفكرون المسيحيّون مجالًا خاصًا بالعصر الوسيط؛ حيث يتبدّى الإسلام عنيفًا ومتعطّشًا لإبداء القوّة والتّصفية الجسديّة، إلى معرفة جديدة تشكّك في الخطابات التّأسيسيّة للإسلام، بما في ذلك القرآن والسّنة، بشكل لا يخلو من توجّس وخيفة، وتنظر - بمقتضى ذلك - إلى الخطاب نفسه، كمجال يعطي المشروعيّة لنزعات تأسيسيّة غير متسامحة، أن تفرض تأويلها الخاصّ بالإسلام، فيما يتعلّق بالجهاد والمرأة، وطريقة التّعامل مع أهل الذّمة.

أفضليّة خطاب على آخر، يسمح به الإسلام نفسه في المذاهب الفقهيّة المعتمدة عند المسلمين، وهو ما يجده الغرب حجّة دامغة لأدلجة بعض جوانب الحضارة الإسلاميّة.

سمح النّسق القانونيّ - الدّينيّ للإسلام ببروزه وانتشاره وهيمنته، بالمقارنة مع العالم المسيحيّ الّذي عدّ هذا النّسق - القانونيّ والدّينيّ - تهديدًا لمصالحه، ووجوده، وهويّته الحضاريّة، وبما أنّ واقع المسلمين يدين - بشكل تامّ - هذا النّسق المعياريّ؛ فإنّه ينبغي الذّهاب رأسًا إلى هذا النّسق، الّذي يوجّه أفعال المسلمين، وإذا كان هذا التّناسق بين الدّينيّ والقانونيّ متميّزًا في العصر الوسيط، الّذي أعطى للمسلمين السّبق في إنشاء الحضارة العالمة، الشّيء الّذي لم يخصّص له إدوارد سعيد مجالًا خاصًا في كتاب الاستشراق؛ فإنّنا نميل إلى عدّ هذا المستوى؛ المرتكز النّظريّ والخطابيّ الّذي عليه مدار التّناظر بين الغرب والإسلام، على أن أصالة إدوارد سعيد فيما يتعلّق بموضوعنا؛ هو تأكيده على أهميّة الجانب

التّصوريّ في بناء السّلطة المسيحيّة[16] للغرب، وهو ما نجد له إشارة في النّصّ القرآنيّ نفسه، عند إشارته إلى الصّراع الأزليّ بين المسلمين واليهود والنّصارى: {وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ}[17]؛ أي نهجهم وتأويلهم للدّين ولحياة الإنسان.

هذه مستويات «تناظريّة» تصوّريّة - إذا شئنا - مشتركة، لا يزال القرآن الكريم يصدح بها، ويضعها نقطة بداية للالتقاء الحضاريّ بين الأمم، دون أن تكون شكلًا من أشكال الحتميّات التّاريخيّة؛ الّتي لا سبيل إلى تجاوزها، وذلك بدليل النّص القرآنيّ الّذي يشير في أكثر من آية، إلى إمكانيّة الجدال والحوار الحضاريّ، إذا صلحت النّيّة وأيقنت النّفوس.

إلّا أنّ المتأمّل في آيات قرآنيّة مماثلة من الكتاب العزيز، يتبيّن - بما لا شك فيه - أشكال التّناظرات الّتي يقيمها الله عزّ وجلّ بين الحضارات المذكورة، وإذا كان من معنى ودلالة لهذا التّناظر؛ فهو الإشارة إلى أنّ مكمن الصّراع بين الغرب المسيحيّ والإسلام، يبقى مرتكزًا على أسس «تصوريّة» متعدّدة الأبعاد، تتنافى مع الاعتقاد القائل: إنّ مرجعيّتها تعزى إلى أحداث معاصرة.

تتدخّل الأدلوجة في صلب هذا المستوى التّصوّريّ، فتتوسّط بين الدّين وعالم الوقائع، لتباعد الهوّة بينهما، ولتضع مسألة الهويّة وجدواها موضع تساؤل، ولنؤكد أنّ ما يهمّنا هنا؛ هو إرادة هذا الغرب المسيحيّ في «تثقيف» مجمل مجالات الفعل الإسلاميّ، بالتّركيز على الملامح التّقليديّة للدّين الإسلاميّ، الّتي كانت تستمدّ معياريتها من مجال تداوليّ له خصوصيّاته ومتطلّباته، بيد أنّ هذا التّأويل الانعكاسيّ الّذي يبرّر الواقع المعاش للمسلمين - بالدّين أو الأثر الدّينيّ - وهذا حال الاستشراق في بعض صوره، الّذي لا يقبل أن يكون المنطلق لفهم الواقع هو الدّين نفسه، هذا التّأويل - رغم كل ما يمكن أن يقال - يتغاضى عن الذّخائر الّتي يحفل بها التراث الإسلاميّ، وينكبّ أشدّ ما يكون على مجالات «الحصر»، الّتي تطبع سلوك المسلمين المعاصرين.

وهكذا، ينسج المستشرقون الجدد علاقة نظريّة متينة، بين ما يمكن أن نعدّه نتاجًا إيديولوجيًا لنظريّة ما - بعد كولنيالية (Postcolonial)، يكون منطلقها تعميم ثقافة الخوف المترتّب عن النّظرة التّجزيئيّة للدّين الإسلاميّ، من منطلقات نظريّة كانت تشكّل أساسًا معياريًا للإسلام المتوارث، قلنا: تنسج علاقة بين هذا المستوى الأدلوجيّ، وبين بثّ الخوف في نفس الإنسان، بالتّشكيك في أشكال التّوسطات المعياريّة الّتي ينظر إليها الغرب المسيحيّ، كونها متناقضة، ووهميّة في قدرتها على تحرير الإنسان المعاصر، بيد أنّ

16- إذا أخذنا بموقف إدوارد سعيد، نجده يقرّ أنّ المسيحيّة ذاتها مستعملة.
انظر: سعيد إدوارد، العالم والنّصّ والنّاقد (دراسة نقديّة)، ترجمة: عبد الكريم محفوظ، اتّحاد الكتّاب العرب، ط 1، 2000م، ص ص 346 -347.
17- [سورة البقرة (2): (120)].

هذا الخوف - نفسه - كونه حجّة منظوريّة للغرب المسيحيّ على الإسلام، لا يكون فعّالًا إلّا إذا كان مبنيًّا على حقل الدّلالة؛ أي كونه رسالة أو - على وجه التّدقيق - «شيفرة» تبثّ معلومات مكثّفة لمتلقٍّ محدّد: هو الإسلام، قبل الغرب نفسه، ليس الخوف - إذن - سلوكًا ولا فعلًا؛ إنّما هو صورة تبني بكيفيّة تخييليّة، تمثّلات سلبيّة للإسلام في وسائل الإعلام الجماهيريّة، الّتي تكتسي اليوم طابع الكونيّة.

إنشاء هذه المعرفة الجديدة تبرّرها الحاجة إلى مفهمة، أو لنقل: اصطلاح، يسمح ببروز كلمة كـ(الإسلامفوبيا)، ويجد طريقه في كيفيّة استعمال اللّغة، وما قد تفصح عنه[18].

تسمح الإسلامفوبيا، إضافة إلى ما تخفيه من تعالي الذّات الغربيّة ومركزيّتها وقوّتها، بتدعيم طاقة التّمثّلات الغربيّة للإسلام، لتحقيق مزيد من التّمايز على الصّعيد النّظريّ المؤدّي - فيما بعد - إلى عالم الوقائع، كما يريد لها أن تتحقّق في ذهن الإنسان المسلم، بالإضافة إلى خاصيّة الهيمنة المميّزة لنسق الاستشراق الجديد، وتبرز كونيّة الغرب المسيحيّ في مقابل كونيّة الخوف من الإسلام، لتربط التّأويل العقلانيّ بالأوّل، وتنفيه عن الثّاني، داعية إلى ضرورة «الاتباع»، بعد الوعي بالمفارقات الّتي بناها النّسق الاستشراقيّ الجديد.

يتجلّى للوهلة الأولى المجال الخطابيّ (من خطاب) والفكريّ لنسق الاستشراق الغربيّ، هذا الأخير؛ لا يعدو كونه خطابًا أنطولوجيًّا يعبّر عن حضور مكثّف للذّات، الّتي تحتكر عمليّة التّأويل، وتحمل نيّة التّوغّل في مجالات الثّقافة، والتّاريخ، والسّياسة على أثر هذا التّأويل.

يبيّن إدوارد سعيد نسق الاستشراق ووظيفته، فيقول: «الاستشراق نهج للفكر، ينبني على إحداث تمايز أنطولوجيّ وإبستيمولوجيّ بين الشّرق والغرب»[19]، ومن وراء أشكال التّمايزات، تضطّلع الإيديولوجيا بمهمّة قلب محتويات وعي الإنسان، المتشكّلة من وراء التّاريخ والإيمان بهدم البرنامج السّياسيّ للإسلام التّصوريّ، وقبل ذلك؛ بثّ الخوف بصدد بعض قضاياه «المعياريّة»، أعني؛ تلك الّتي يمكن أن يتأسّس عنها مسار لتاريخ وقائعيّ للمسلمين، من هنا؛ العلاقة الدّمجيّة بين الإسلاموفوبيا والنّهج الاستشراقيّ[20] الجديد،

18- Wolf, Maxie, orientalism and islamophobia as continuous source of discrimination, study program,2015,p.1.

19- ibid,.p.2.

20- لا ندرج الأعمال الاستشراقيّة الكبرى الّتي سبرت أغوار الإسلام الحضاريّ بوفاء وتجرّد، وما يرتبط بذلك من تحقيق لنصوص إسلاميّة كبرى، من طرف علماء ومفكرين ينتمون إلى المسيحيّة أو اليهوديّة، وجب- إذن- التّأكيد إنصافًا لجهود هؤلاء، أنّ الأمر يتعلّق بعمليّة انتقاء قصديّة لبعض وجوه المقاصد الاستشراقيّة، الّتي تحمل أهدافًا تتجاوز خدمة المعرفة في ذاتها.

انظر، على سبيل المثال:

آنا ماري شيمل (ت 2003)، المستشرقة الألمانيّة.

الّتي تبدو غير مؤسّسة، كما أنّها تمثل عداء غير مستبين تجاه الإسلام، يتبنّى أحد الباحثين هذه الفكرة، بقوله: «الإسلاموفوبيا شكل من العنصريّة لخوف غير مؤسّس تجاه الإسلام»[21].

لا يمكن أن نعرّف مفهوم الإسلاموفوبيا، إلّا من جهة كونها تجلّيات لهذا المستوى التّناظريّ، القائم بين «أنا» و«آخر»، غرب وإسلام وفق أشكال من التّمايزات غير المؤسّسة، وكما يبين أحد الباحثين - كذلك - فإنّ «تجلّيات الإسلاموفوبيا مؤسّسة بشكل من الأشكال في نفسيّة أوروبا»[22]؛ إذ يفهم الغرب - في هذا المستوى - كون العامل المشكّل لظاهرة الإسلاموفوبيا، نفسانيّ، ويتمثّل في منافسة الإسلام للغرب، بكيفية تفوق أيّ نسق اعتقاديّ ممكن في العالم، وهو ما يخيف الغرب المسيحيّ على صعيد تحصيل الهيمنة السّياسيّة، ونزعة الخوف - هذه - تتشكّل بالتّعارض مع الدّين الوقائعيّ، وتتعامى - في الغالب - عن النّصوص الدّينيّة التّأسيسيّة في القرآن والسّنة؛ الّتي تدعو إلى التّسامح والحوار والسّلم والتّعاهد، بين المسلمين وبقيّة الدّيانات الّتي تتنازع على ردّ وتأويل الهيمنة لمصلحتها.

ليس «الدّين» في هذا المستوى، إلّا سببًا في التّمييز بين الغرب والإسلام، وهو ما يعني؛ أنّ هذا التمييز بين الغرب والإسلام، توجد كامل دلالته في مفهوم الإسلاموفوبيا[23] نفسه، كونه مفهوم نظريٌّ عامّ، وهذا الجمع النّظريّ - على الأقل - بين النّزعة الاستشراقيّة والإسلاموفوبيا، يشكّل منظورًا - جديدًا ومغايرًا - للعلاقة بين الغرب والإسلام[24]، وإذا نظرنا إليها من هذه الجهة؛ يتبيّن لنا أنّ المشكلة الّتي يراها الغرب قائمة، لا تتعلّق بالنّزعة التّأسيسيّة للإسلام، الّتي تنتشر في بعض دول العالم الإسلاميّ؛ إنّما بالخوف من التّصوّر الحضاريّ المتخفي للإسلام، الّذي يرنو نحو العالميّة، بدليل النّصّ القرآنيّ: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّـهِ الْإِسْلَامُ}[25]، وما دام يمتنع على الغرب - منهجيًا - مجابهة النّصوص الدّينيّة الأصليّة (القرآن والسنة و..) بتأويل مغاير؛ إذ قلّما نجد اهتمامًا لدى المستشرقين في هذا المجال، لأنّ اهتمامهم يتّجه صوب المسلمين المعبّرين عن صورة الإسلام، ولو بكيفيّة تقريبيّة، وإقامة أشكال مختلفة من «التّمازجات»؛ الّتي تسعى بكل جهدها إلى تبخيس الإسلام، وإفقاده أيّة قيمة يتضمّنها تصريحًا أو تلويحًا.

وإذا كان الاستشراق - الكلاسيكيّ والحديث - يشيد بحضارة الغرب المسيحيّ ومركزيّته، اعتمادًا على هذا المسح الشّامل لثقافة المسلمين، بكونها منطلق منهجيّ ونظريّ؛ فإنّ الاستشراق الجديد أيقن أهميّة التّأويل

21- Marranci, Gabriele (2004): Multiculturalism, Islam and the Clash of Civilizations Theory: Rethinking Islamophobia. Culture and Religion, 5 (1), 105-117.p.105.

22- Wolf, Maxie, orientalism and islamophobia as continuous source of discrimination,op, cit,P.5.

23- ibid,. p.5.

24- Ibid,.p.20.

25- [سورة آل عمران (3): (19)].

غير المباشر، ويمكن أن تساهم الصّحافة الجماهيريّة، والجرائد العالميّة المتخصصة في دراسة الإسلام وقضاياه، ووسائل الإعلام بجميع أشكالها، في تفعيل هذا التمركز، والهيمنة على صعيد المجال السياسيّ الّذي يشكّل الرّهان الأساس للنّزعة الاستشراقيّة الجديدة.

هذا تأويل استباقيّ بُثّ في كتابنا العزيز - هيمنة على أثر هيمنة - لا شكّ في أنها كانت ستترك مجالًا أرحب لتأويل مضادّ للإسلام من لدن الغربيّين، ولو لم يكن الإسلام لما كانت الحضارة الإسلاميّة، على أن مكمن التّنازع بين الغرب والإسلام، يمسّ - إذا شئنا التّدقيق - المجال السّياسيّ، أعني؛ تقوية هيمنة طرف على آخر.

سمحت ظروف تاريخيّة محدّدة وممزوجة بتوفيق إلهيّ بانتشار الإسلام، وبهيمنته على ما عداه من الحضارات المجاورة، وانتشر الإسلام في وقت وجيز كإشراقة شمس، لم يخضع لنفس المعايير على شاكلة الظّواهر الرّوحيّة والاجتماعيّة، فقد ولد الإسلام مكتملًا، ولم يعرف طفولة ولا نضجًا؛ إذ برز على أنّه؛ لحظة كليّة وتصوّرًا للإنسان، والكون، وظاهرة مدمجة بشكل مثاليّ، وذاك ما يشكّل مظهره الإعجازيّ، تضاف إليها دعوته الجامعة إلى هويّة كونيّة تبرّر نشأته دينًا للعالمين، وهذه السّمة السّياسيّة الشّاملة لم تتبلور في المسيحيّة، إلّا بعد مضيّ ثلاثمئة سنة بعد اختفاء المسيح، وذلك بفضل التّجديد الّذي طرأ على المسيحيّة في عهد الامبراطوريّة البيزنطيّة، في عهد الملك كونستانتين (قسطنطين Constantine).

3 - الإسلام - فوبيا: من خطاب الثّقافة والحضارة إلى كونيّة النّموذج السّياسيّ.

على مستوى خطاب الإسلام - فوبيا في النّهج الاستشراقيّ الجديد، يمثّل كلًّا من صامويل هانتنغتون (S.Huntington)، ودانييل بيب (D.Pipes)، المستشار السّياسيّ لشؤون الشّرق الأوسط، وستيف إميرسون (S.Emerson)، وبرنار لويس (B.Lewis)؛ باحثين مترسّلين في مجال الإسلاموفوبيا وفي التّنظير لعلاقات التّناظر الحضاريّ بين الإسلام والغرب، على أنّ هذا المستوى التّناظريّ المشيّد خطابيًّا، لا يكتسب قيمته وفاعليّته في منظور هؤلاء، إلّا بمدى قدرته على خلق تصوّر سلبيّ للإسلام، في مقابل بناء صورة مثاليّة ومتميزة لحضارة الغرب، هذا مذهب هانتنغتون في بثّ هذه الفكرة، فقد صرّح أنّ: «المفاهيم

الغربيّة للفردانيّة، واللّيبراليّة، والدّسترة، وحقوق الإنسان، والمساواة، والحرّيّة، وقوّة الحقّ، والدّيمقراطيّة، وحرّيّة الاقتصاد، وفصل الكنيسة عن الدّين، قلّما نجد لها نظيرًا في المجتمع الإسلاميّ»[26].

هذه الذّهنيّة الإسلاموفوبيّة مبثوثة في كتاب هانتنغتون «صدام الحضارات»؛ الّذي يجدّد التّأكيد على نزعة معادية للإسلام، على أنّه حامل لتصوّر حضاريّ محدّد المعالم، وهكذا، يستبين هانتغتون جوهر الخوف من الإسلام، بقوله: «لا يتمثّل المشكل الأساس للغرب تجاه الإسلام في أصوليّة إسلاميّة بعينها، (منظور إليها على أنّها شكل من أشكال التّطبيق الإسلاميّ)؛ إنّما في الإسلام نفسه (كونه؛ تصوّر حضاريّ)، حضارة مختلفة عن الغرب، يؤمن أتباعها بسموّ هذه الحضارة الّتي ينتمون إليها، رغم ضعف قوّتهم وهوسهم بها[27].

من يقول: ذهنيّة، يشير - بالضّرورة - إلى منطق خطابيّ غير متأصّل - بالضّرورة - في الوقائع موضوع التّأويل، هذا هو المسلك المنهجيّ الأكثر فاعليّة لمجابهة الإسلام، الّذي يستدمج - بدرجات متفاوتة - بعض ملامح التّفكير الإيديولوجيّ الضّروريّ، للتميز بين مفهومي الغرب والإسلام، وفق شكل تصوّريّ غاية في التّدقيق.

نقصد بالمستوى الأدلوجي؛ الدّعاية الّتي ينشرها الغرب تّجاه بعض قضايا الإسلام الجوهريّة، لتوجيه الرّأي العامّ ضدّ الإسلام، ومن البيّن؛ أنّ الإسلاموفوبيا - هنا - لا تبرز على أنّها صراع تقليديّ ضدّ جهاد الإسلام، ودفاعه عن كونيّته بالعنف والقوّة، إنّما لا تعدو كونها شكلًا من أشكال التّمييز العنصريّ ضد الإسلام، بواسطة المسلمين أنفسهم الحاملين لصفات الإسلام المنزّل وسماته.

هذا المستوى الأدلوجي الّذي يسلكه الغرب المسيحيّ لتحقيق هيمنته السّياسيّة والحضاريّة؛ هو الّذي يجعله يتعامى عن القيم الجوهريّة للإسلام، من حيث دعوته إلى التّسامح والتّعاهد بين الدّيانات المختلفة، ومعارضته الشّديدة لكلّ أشكال التّرهيب والحرب غير المؤسّسين: {وَإِن جَنَحوا لِلسَّلمِ فَاجنَح لَها وَتَوَكَّل عَلَى اللَّـهِ إِنَّهُ هُوَ السَّميعُ العَليمُ}[28].

26- Cité par Wahida Valiante «Les Echos du Passé».
http://wwwprintthis.clickability.com/pt/cpt?action-cpt§titlethe Echos+the+past+%28by+wahida+valiante%29 +Media+Monitors+network§expire=8urlid-37394048+b-y8url=http%A%2F

27- Cité par Wahida Valiante «Les Echos du Passé»
http://wwwprintthis.clickability.com/pt/cpt?action-cpt§titlethe Echos+the+past+%28by+wahida+valiante%29 +Media+Monitors+network§expire=8urlid-37394048+b-y8url=http%A%2F

28- [سورة الأنفال (8): 61].

على أنّ أيّ حكم - مهما كان - على ردود أفعال المسلمين من لدن الغرب، ينعكس - بالضّرورة - على تصوّر عامّ للإسلام في منظور المستشرقين، وهذه هي خطورة التّأويل الأدلوجيّ لفكرة التّناظر، الّتي تتوارى خلف نزعة الخوف النّفسيّ تجاه الإسلام المعياريّ والتّصوريّ.

يظهر الفرق - هنا - بين تصوّر علميّ للإسلام - بالمعنى الخاص للكلمة - وبين تصوّر أدلوجي يبالغ في نسج تصوّرات زائفة (stéréotypes) عن الإسلام، تصوّر يسعى الإسلام نفسه إلى نفيها، والدّعوة الدّامغة إلى تكريس صورة حقيقيّة وإيجابية لإسلام، كان له الفضل في نشر التّسامح بين الدّيانات المختلفة، واحترام الحياة الخاصّة للآخر المختلف في دار الإسلام نفسه، بيد أنّ الغرب المسيحيّ، وفي إطار النّموذج النّظريّ العامّ لبناء حضارته، يقف - فقط - عند مجالات «الحصر» في الإسلام، بالتّالي، ما يكون له سند في العالم الواقعيّ للمسلمين.

تسمح وسائل الإعلام الجماهيريّة المعاصرة - اليوم - في تدعيم مجالات الحصر هاته، الّتي تؤجّج الصّراع والعداء بين الإسلام والغرب، وتؤدّي إلى بثّ اللّاتسامح الدّينيّ بين الحضارتين، وتكتسب خطورتها من كونها وسيلة توصيليّة لتصوّرات تتجاوز ما تحمله من معلومات، لا يمكن حصر عدد النّدوات والمؤتمرات الدّوليّة، والتّوصيات الّتي عقدت وتعقد في إسطنبول، وباريس، وواشنطن، وكلّها تؤكّد - مبدئيًّا - على ضرورة التّسامح، ونبذ الصّراع الثّقافيّ، وتغليب الحوار، لهدم تصوّرات الإسلاموفوبيا الّتي تؤثر على كلا الحضارتين، بالتّالي، إيجاد بدائل تغلّب الحوار على أشكال سوء الفهم والرّفض، الّتي تميّز العلاقة بين الإسلام والغرب.

ويبدو من أشكال التّفسيرات الّتي يمكن إعطاءها لظاهرة الخوف من الإسلام، وعند ربطها بالمستوى الأدلوجي؛ أنّ الأمر يتعلّق بوظيفة باطنيّة خفيّة؛ هي - بالذّات - «الهيمنة السّياسيّة» الّتي تتحصّل بمحو «الآثار المعياريّة الدّينيّة»؛ الّتي شكّلت، ولا تزال تشكّل كونيّة الإسلام على أنّه حضارة إنسانيّة، ولا شكّ في أنّ كتابات فرنسيس فوكوياما - خاصّة كتابه المشهور «نهاية التّاريخ» - يؤسّس للمجال التّناظريّ الّذي لطالما عددناه جوهريًّا في تكوين حضارة الغرب، في علاقتها بحضارة الإسلام، ودعوة هذا الأخير الصّادحة إلى «كونيّة مؤسّسة» على السّلام بين الأمم.

يحق لنا التّأكيد - هنا - أنّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة، أيقنت أهميّة «أنموذج الخوف»؛ بل ارتقت به إلى أن يكون فرضيّة نظريّة للسّياسة الخارجيّة، الموجّهة صوب الشّرق الأوسط، ويشكّل هذا المسلك

المعتمد على «الخوف» من الآخر (الإسلام)، حافزًا ودعامة لمبدأ، يتوقّع نشوء نشوب»حرب الكلّ ضدّ الكلّ» ووقوعها، وفق نموذج هوبس النّظريّ، مع إمكانيّة الرّجوع إلى مبدأ السّلم متى تطلب الأمر ذلك، وفق تصوّر فلسفيّ لإمانويل كانط منظورًا إليه من زاوية السّياسة الخارجيّة.

يشكّل هذا التّأرجح بين المبدأين: الحرب/ السّلم، ونضيف إليهما مبدأي أو ثنائية؛ عدو/ صديق، كما أبرزهما المفكّر الألمانيّ كارل شميت (C.Schmitt /1985 - 1888)، سمات الخوف المعاصر تجاه «الإسلام» على أنّه أفق حضاريّ.

وسواء تحدثنا عن الإسلاموفوبيا أو الإرهاب؛ فإنّ الأمر يتعلّق «بنمط جديد للصّراع»[29]، أو نشاط خطابيّ يميّز الحضارة المعاصرة للغرب المسيحيّ في علاقتها بالإسلام، وتكتسي الأدلوجة أهميّتها من قدرتها على الارتقاء بهذا النّموذج التّناظريّ، إلى مستوى دعائيّ، يكون قابلًا للتّعميم على مستوى الحضارة، بالتّالي؛ مقدرته على المدافعة عن الهويّة الحضاريّة للغرب، وهو ما تدلّ عليه «اللّيبراليّة» بمختلف أشكالها، الّتي من مميّزاتها؛ التّسامي، والحرّيّة، والمطابقة مع الإنسان.

في مقابل هذه الهويّة الكونيّة في منظور الغرب، ينبري الإسلام ليجدّد هويّة متقادمة ومعياريّة مطبّقة، قائمة - في جوهرها - على تعطيل فهم الإنسان، وقدرته على إدراك جوهر ومنطق الزّمن والتّاريخ، هذه حجج يعتقدها الغرب المسيحيّ كفيلة بإبراز تهافت الإسلام على صعيد التّطبيق، وحدها الحداثة السّياسيّة الغربيّة استطاعت أن تفكّ لغز الزّمن والتّاريخ، بالوصول إلى مبلغ نهايتهما واكتمالهما، وتأتّى لها ذلك عبر مسار زمنيّ طويل، شكّلت نقطة بدايته زحزحة الدّين عن نقطة تمركزه، والإيمان بالإنسان على أنّه؛ ذات تَملك ولا تُملك.

يقدّم هانتغتون في كتاب صدام الحضارات، وهو على جهة التّدقيق؛ صراع بين الغرب والإسلام، تصوّرًا متينًا لمكمن الصّراع الحضاريّ بين الغرب والإسلام، ويجعله توليفًا بين ثلاثة مستويات، هي على التّوالي: اللّغة والدّين والتّاريخ، من بين جميع هذه المستويات، يمثّل الدّين العنصر الرّئيس، فيما يخصّ «التّنازع» على القيم ذات الخصائص والمعايير السّياسيّين، ليس من شكّ في أنّ تاريخ الإسلام السّياسيّ؛ هو تاريخ قيم سياسيّة تنبني على دعامات الدّين، ويدافع الغرب - من جهته - عن قيم سياسيّة ديمقراطيّة أصيلة في ثقافته؛ هي عينها اللّيبراليّة، والحرّيّة، والمساواة، والفصل التّاريخيّ بين الكنيسة والدّولة، تكاد تكون العلاقة بين القيم الغربيّة والدّيمقراطيّة - في عين الغرب - توليفيّة طبيعيّة، بيد أنّ الدّيمقراطيّة نفسها،

29- David C. Rapoport, Fear and Trembling: Terrorism in Three Religious Traditions, The American Political Sc - ence Review, Vol. 78, No. 3 (Sep., 1984), 658-677.

Stable URL: http://links.jstor.org/sici?sici=0003-0554%28198409%2978%3A3%3C658%3AFATTIT%3E2.0.00%3B2-1

كما يتصوّرها الغرب المسيحيّ ـ احتماليّة ومشروطة، بما يمكن أن تحمله من معايير وقيم من منطلق الذّات الحاملة، في هذا المستوى المعياريّ ـ بالذات ـ تتساوى الحجج، وتعلو «التّناظرات»، ويرنو الاعتقاد بأنّ ما هو قائم؛ هو عين الحقّ ومنبع الصّفاء والتّسامي، هذا هو تصوّر الغرب المسيحيّ لثقافته، وهو نفسه في الإسلام الرّاسخ.

مهما يكن من جهد مبذول في هذا الصدد؛ فهو تراكميّ محكوم عليه ـ كذلك ـ تاركًا المجال لنزعة أدلوجيّة ذات جذور ثقافيّة ـ دينيّة، تغني مجال التّناظر، وتوسّع بؤرته.

تبدو الوظيفة؛ الّتي هي تحصيل «الكونيّة» مشروطة بهذا التّناظر القصديّ، الّذي يستهدف نشر كونيّة موازية، هي «كونيّة الخوف» من الآخر، أعني؛ الإسلام المعياريّ.

ينقسم الإسلام ـ في منظور الغرب المسيحيّ ـ إلى مستويين يتّجهان صوب مجال معياريّ ـ خاصّ ومستقلّ ـ أحدهما؛ يخصّ المجال الاعتقاديّ في علاقته بمجال «القيم»، وآخر؛ ينبني على هويّة دينيّة، أساسها؛ الإيمان الرّوحيّ، وهو التّمييز نفسه بين مسيحيّة بروتستانتيّة، وأخرى كاثوليكيّة.

يمكن القول ـ بناء على أشكال هذه التّمايزات والتّناظرات: إنّ المستوى الأوّل يبسط رؤيته على الصّراع القائم بين الغرب والإسلام، الّذي تنتج عنه رؤية لمسار التّاريخ الإنسانيّ، يراه الغرب آذنًا بالقضاء على هيمنته السّياسيّة.

هكذا، تشكّل الأدلوجة ـ في علاقتها بمشروع الحداثة الغربيّة ـ مكيدة لمسار العولمة المعاصرة؛ حيث يشكّل الإرهاب، بوصفه سمة لصيقة بالإسلام اليوم، تحيينًا «لكونيّة سلبيّة، تدعم «سرديّة الخوف»، كما يروّج له من طرف الغرب المسيحيّ في مختلف وسائط الإعلام الجماهيريّة.

نكاد نلمس نوعًا من التّناسب؛ بين الإرهاب على أنّه خطاب سرديّ محبوك، وبين مكيدة لنزعة اقتصاديّة عالميّة، والوظيفة الّتي تولّدها أدلوجة الخوف المرتبط بالإرهاب؛ هي نزعة توتاليتاريّة وشموليّة، وما يمكن أن تنتجه من أشكال المفارقات والاختزالات.

في هذا المستوى ـ بالذّات ـ يتحقّق رهان المنهج الاستشراقيّ الجديد، ويبرز نوع من المواجهة الوقائيّة على صعيد القيم المعياريّة ـ أوّلًا ـ ثمّ مستوى المعايير السّياسيّة، على أنّها مجال لتصوّر الحضارة الغربيّة المنظوريّة.

نجح الغرب المسيحيّ - بكل تأكيد - في المزج بين الخطاب الدّينيّ اللّازمنيّ، وبين الأزمنة التّاريخيّة من داخل حضارة الإسلام وتراثه، وذلك وفق سيرورة نظريّة وفلسفيّة دقيقة ومركّبة، على أنّ تاريخ الإنسانيّة المعاصر، على مستوى صدام الحضارات، يمثّل صدى فكرة ومبدأ هوبس الشّهير: «الإنسان ذئب للإنسان»، الّذي يدشّن مجال الخوف من الآخر، بالمماثلة النّظريّة: «الحضارة ذئب للحضارة».

مكّن مبدأ هوبز هذا الدّولة الحديثة أن تبسط يدها على الأجساد البشريّة، وتخضعهم لإرادتها المطلقة والمهيمنة، بموجب قواعد سياسيّة تحكم ممارسة الفعل الإنسانيّ لطبيعته ونشاطه.

بموجب هذا المبدأ النّظريّ العامّ، وبكيفيّة توليفيّة مع التّصوّر الكانتيّ (E. Kant/ 1724 - 1804م) لمجال السّلم الدّائم - الملتبس من وجهة نظرنا - يصبح ممكنًا التّحكم في تصوّر معيّن للحضارة، لا يتجاوز الصّيغة الطّبيعيّة لمعنى الحقّ، كما أسّسه هوبز.

يسمح «الخوف» في تضييق المجال المعياريّ الذي عليه مبنى الحضارة أو توسيعه، بناء على مرجعيّة معياريّة، نقيس عليها معنى التّطور والتّقدم الإنسانيّين، تمثّل «أدلوجه الخوف»، كما اهتدى إليها الغرب المسيحيّ في علاقته المضطربة مع الإسلام، مذهبًا قائم الذّات يدّعي حرصه على تحقيق أمن عالميّ، وينشأ - على المستوى الباطنيّ - عن نمط اقتصاديّ ليبراليّ شموليّ، يسعى إلى تحقيق الهيمنة على المستوى السّياسيّ.

يتجلّى الفرق - هنا - بين نزعة استشراقيّة جديدة ذات أهداف سياسيّة خفيّة، ترتكز في الإعلاء من الهيمنة والكونيّة على الجذور الثّقافيّة - الدّينيّة- والإسلام نفسه يدعم - بما لا يدع مجالًا للشّكّ - «الهيمنة» الّتي شكّلت الرّهان الّذي على أساسه انطلق الإسلام قديمًا، ولا يزال كذلك.

على أنّ ما يعطي للإسلام مشروعيّته ووجاهته في علاقته بباقي الدّيانات، بالتّالي؛ ديمومة معاييره وكونيّتها، هو؛ هذا المزج بين ما يشكّل معيارًا أصليًا للدّين، غير متغيّر في الزّمان والمكان: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّـهِ الْإِسْلَامُ}[30]، {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ}[31]، يمتاز بخاصيّة الإلزام المعياريّ على صعيد الكونيّة، وبين المعايير المبنيّة والمتشكّلة على أرض أناس أحياء، تنزع إلى بناء حضارة أساسها التّعايش، والتّسامح، والحوار مع باقي الدّيانات.

كانت تجربة الرّسول محمد ﷺ في المدينة، أوضح مثال للكيفيّة الّتي انتقلت فيها المعايير التّصوّريّة إلى المجال الإنجازيّ، المرتبط بنشأة المدينة وبناء حضارة الأمّة من جهة، وبين «المعايير الكونيّة»،

30- [سورة آل عمران (3): (19)].

31- [سورة آل عمران (3): (85)].

المرتكزة - في جوهرها - على الحوار متى أمكن الإجماع، والارتكاز إلى «المعاهدة» عند نشوب الاختلاف، والحرب عند نقض خاصيّة التّعاهد، ومبدأ السّلم.

يبدي الغرب المسيحيّ خوفًا خفيًا من الإسلام - هكذا في معناه الأوّل - أعني؛ خصائصه المعياريّة الإلزاميّة اللّامتحدّدة - تاريخيًا وزمنيًا - وفق الآيتين المذكورتين آنفًا، بيد أنّ هذا الصّراع المتخفي حول «الملّة»؛ بين الغرب المسيحيّ والإسلام، واليهوديّة من جهة، لا يفهم على حقيقته إلّا منظورًا إليه من زاوية الرّغبة في تحصيل الهيمنة، وفرض رؤية للتّاريخ.

دلالة «الملّة»[32] نفسها - كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم - وكما أوردناه في صفحات سابقة، مبنيّة - من جهة أولى - على التّموقع في إطار شكل «تناظريّ»، قد يكون ثقافيًا - دينيًا، وقد يكون سياسيًا، مع إمكانيّة قيام شكل من أشكال التّبادلات بين الأوّل والثّاني، تنهل منه الهويّة الحضاريّة خصائصها.

الملّة والسّنّة؛ مفهومان مركّبان و«متناظران»، يحمل مفهوم السّنّة دلالة ما يتّخذ وضعيّة الإلزام، على صعيد الكونيّة: {سُنَّةَ اللَّـهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّـهِ تَبْدِيلًا}[33]، في حين ترتبط الملّة - في أحد معانيها - بالشّرعة أو الحضارة الّتي تحتمل وجهًا سياسيًا، يقتضيه الوجود الإنسانيّ.

يمكن القول: إنّ الأدلوجة الغربيّة، من حيث كونها سرديّة ثقافيّة، تجاه الإسلام، تنبني على المستوى الثاني؛ أي الملّة، ملّة الإسلام، وهي شكل من أشكال تنزيل مقتضيات الدّين على واقع المسلمين، في هذا التّحديد بالذّات، يمكن عدّ «الملّة»؛ ملمحًا حضاريًا قد يكون منسجمًا مع مقتضيات الدّين المنزّل، كما قد يكون تنزيلًا جزئيًا لبعض قضاياه، مثلما يمكن أن تكون دلالة هذه الملّة يشوبها نوع من البهتان والتّدليس، هذه حقيقة مفهوميّة مبثوثة في القرآن الكريم في أكثر من آية.

يعي الغرب المسيحيّ هذه الحقيقة، وإلّا لما كانت هناك أهميّة للحفريّات الاستشراقيّة في هذا الميدان، وإذا كان الإسلام يكتسي قوّته من منطلق «السّنن» الّتي تشكّل دعامته الأساسيّة، ومرجعيّته الّتي بموجبها يفرض نمط كونيّته، وإذا كان مستوى الإسلام التّصوريّ لا ينفكّ عن المجهود الإنسانيّ، الّذي يمثّل ضرورة أساسيّة لهيمنته وقائعيًا، إذا كان هكذا؛ فإنّ نقطة الارتكاز الّتي بإمكاتها تحقيق أهداف الغرب المسيحيّ، تتجلّى في إنشاء «مجال تناظريّ» مع الإسلام، بالاعتماد على أشكال التّوسطات الممكنة، الّتي تسمح ببثّ أدلوجة للخوف، بوصفها؛ أداة من أدوات الصّراع تجاه الإسلام، بالتّالي؛ تشويه حقائق هذا الإسلام الكونيّة.

32- انظر:

أبو نصر الفارابي، كتاب الملة ونصوص أخرى، تحقيق: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، ط 2، 1991م.

33- [سورة الأحزاب (33): (62)].

هذه متطلبات تمليها الضّرورة المنطقيّة قبل كلّ شيء، وفق منطق الموضوع والمحمول؛ إذ لمّا كانت «السّنن» موضوعًا، أو قل: جوهرًا إلهيًّا منزلًا، وكان تطبيق هذه السّنن مرتبطًا بالجهد الإنسانيّ في إصابته للحقّ الإلهيّ، وكان هذا هو المحمول أو العرض؛ فإنّ هذا ما يجعل الاعتماد على - هذا الأخير - على أنّه؛ وسيط ذو أهميّة قويّة بالنّسبة إلى الغرب المسيحيّ في مجابهته للإسلام التّصوّريّ.

هكذا، فما يبدو أنّه مواجهة «للإسلام»، لا يعدو كونه مواجهة لبعض أشكال الهيمنة السّياسيّة الّتي لا يخفيها الإسلام، سواء في علاقته بالمسيحيّة أو اليهوديّة على أنّها ديانات ذات أصل توحيديّ، بيد أنّ الإسلام نفسه يعدّ - بحجج قويّة ومدعومة - «نسخة» لما قبله من الدّيانات، بالتّالي؛ هيمنته «المعياريّة» على ما سواه من الأحكام والأعراف، يقول الله تعالى في محكم تنزيله: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّـهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّـهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[34] وقوله كذلك: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ}[35].

الاختلاف سنّة الله في خلقه، كما أن أحكامه - تعالى - مقدّرة على عباده في الزّمان والمكان، بيد أن بناء «الحضارة» والمدافعة عنها، موكول إلى الإنسان نفسه: {كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰؤُلَاءِ وَهَـٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}[36]، ويفضي اختلاف الحضارات - هنا - إلى شكل من أشكال التّنازع على القيم الإنسانيّة، المهيمنة على صعيد الفعل السّياسيّ.

يرى المسلمون - اليوم - أنّ قيم الإسلام تدافع عن كرامة الإنسان، بوصفه إنسانًا، بالتّالي؛ فهو يمثّل «كونيّة أصيلة» ومتوهّجة، رغم كيد الكائدين، ويرى الغرب المسيحيّ[37]؛ أنّ كلّ «حضارة» كيفما كانت قوتها، آيلة إلى الانتهاء، مفسحة المجال لحضارة فتيّة تنسخ ما سبقها من الحضارات، وهي - في منظور الغرب المسيحيّ - الكونيّة اللّيبراليّة الملازمة لبنية العلمنة.

هذه مقدّمات المنهج الاستشراقيّ الجديد؛ الّذي ينحصر دوره في استشكال الحقل الإسلاميّ، وإنشاء مجال للتّفاعلات بين الغرب والإسلام، الّتي تتمفصل - بالضّرورة - مع إعادة بعث دعاوى ثقافيّة، تدافع عن القيم

34- [سورة المائدة (5): (48)].

35- [سورة النّساء (4): (47)].

36- [سورة الإسراء (17): (20)].

37- لا يخفى النّقد الذّاتيّ الذي يميّز الحداثة الغربيّة، ويرى بعض المنتمين إليها تنكرها لمبادئها التنويريّة، التي كانت الركيزة الأساسيّة التي بنت عليها حضارتها. إنّ كلّ ادّعاء للكونيّة- لا محالة- يخفي أفكارًا هامشيّة، لا تربطها بالحضارة أيّة رابطة. انظر مثلًا: النّقد الجذريّ للحداثة الغربيّة من طرف فلاسفة الاختلاف: هيدغر، ديريدا، نيتشه، ليوتار، فوكو، .. إلخ.

الدّيمقراطيّة الغربيّة، وهذه سيرورة متراكمة، وصلت مداها في الزّمن الرّاهن مع «سرديّة» الحرب على الإرهاب (War on terror)؛ الّتي دشّن القول فيها صامويل هانتنغتون في (صدام الحضارات Clash of Civilizations)، هكذا، فما يبدو أنّه يشكّل مدخلات نظريّة للتّفكير المعاصر في الإسلام، يمثّل - بالنّسبة إلى الغرب - منطلقًا للتّركيز النّظريّ، وذلك بالسّعي الدّائم إلى نقله؛ من مستوى التّصوّر، إلى مستوى الفعل المنجز القابل للنّقل من زمن إلى آخر؛ حيث يُحكَم على الماضي التّاريخيّ للإسلام بناءً على راهن ملتبس.

يمثّل كتاب محمد شحرور «الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة» جوابًا[38] عميقًا لمكمن اللّبس والغموض، الّذي يكتنف تفسيرنا للقرآن، ويشكّل - في نفس الوقت - المجال الّذي تنتعش فيه أدلوجة الاستشراق الجديد، ويبين شحرور أنّ بعض الأحكام المتعلّقة بالإسلام، ترتبط بالقراءة الخاطئة للقرآن، ولطبيعة آياته وسوره، وذلك بعدم الوعي بجوانب معاصرته لنا على مستوى المعرفة الدّقيقة باللّغة العربيّة، وبالمقاربة اللّسانيّة الّتي تحدّد مستويات المعرفة في العهود السّابقة للإسلام، بالتّالي؛ ضرورة دمج العلوم الاجتماعيّة في قراءتنا للقرآن للوعي بمستوياته المعاصرة.

وفي مقابل هذا النّقص أو العيب في تأويل النّصّ الدّينيّ وتفسيره وفق مرجعيّة عقلانيّة موحّدة ومعاصرة، تتنازع التّأويلات، وتتباين المذاهب، وتنشأ الفرق؛ فتدّعي قدرتها على التّعبير الأصيل عن مقتضيات النّصّ المنزّل؛ أي القرآن، وهذا الانقسام التّأويليّ في مستوى النّصوص الدّينيّة الأصليّة، الّتي تُأوّل - بموجبها - حقيقة منزّلة تأويلات متباينة، يؤدّي إلى بروز تأويل مضادّ يستغل هذا الانقسام، لبثّ دعاوى جديدة تخدم مصلحةخاصّة، هي؛ مصلحة الغرب على صعيد عالميّة المعرفة.

***

ينتعش الاستشراق الجديد في هذه البيئة التّأويليّة الملتبسة؛ فيدمج سرديّة الخطاب الإسلاميّ التّقليديّ مع واقع حال المسلمين المعاصرين، متناسيًا - بوعيه - الانشطار الحاصل بين الكلمات والأشياء.

من النّاحية «المنظوريّة»؛ يجد الغرب هذا «الانشطار» الحاصل في وعي المسلمين بالظّاهرة الدّينيّة، فرصة سانحة لتشكيل أدلوجي للإسلاموفوبيا، امتدادًا لنزعة استشراقيّة جديدة، تسعى - بكل جهدها - إلى الهيمنة الكونيّة، ومهما يكن من أمر هذا التّشكيل الإيديولوجيّ للاستشراق الجديد؛ الّذي يسعى إلى إنشاء

38- أنظر كذلك:

- محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجيّة القرآن المعرفيّة.

- محمد عابد الجابري، نحن والتراث.

- طه عبد الرّحمن، تجديد المنهج في تقويم التّراث، الدّار البيضاء، المركز الثّقافيّ العربيّ، ط 1، 1994م.

خطاب سرديّ للخوف من الإسلام؛ فإنّه - إضافةً إلى ذلك - يستند في عمقه إلى بناء الهويّة الغربيّة، والمحافظة عليها حضاريًا.

لا يكتسب الاستشراق الجديد أهميّته وقوّته، إلّا من حيث قدرته على فتح بؤر تفكّرية، تسمح بإنشاء تأويل ملتبس للإسلام، عند غياب تأويل نهائي لبعض مكوّناته، لم يستطع المسلمون المعاصرون ردّ هذه التّهم اللّاعقلانية المرتبطة بالإسلام، بتقديم أدلّة من التّاريخ والفقه والتّصوف، تكشف زيف التّأويل الغربيّ للإسلام، وتبيان نزعته العنصريّة تجاه الحضارة الإسلاميّة.

بغض النظر عن الدّوافع النّفسيّة الخفيّة المتمثّلة في العداء للإسلام، كما تدلّ على ذلك آيات كثيرة من القرآن؛ فإنّ الأهمّ: هو هذا التّأويل - نفسه - الّذي يتمركز على ثبات المستوى الرّوحانيّ للإسلام، وعدم قابليته لأن يكون معاصرًا ومعايشًا لفكرة الحداثة نفسها، كما يتصوّرها الغرب المسيحيّ في نظميّته الحضاريّة.

الباعث على تأجيج الصّراع بين الغرب والإسلام، لا تبرّره الاختلافات الفكريّة أو الحضاريّة القائمة، بقدر ما تبرّره التّشابهات القائمة على «الهيمنة الكونيّة»، الّتي يسعيان إليها بكل جهدهما، والمظاهر النّفسية للغرب المسيحيّ تجاه الإسلام، الّتي يبرزها القرآن الكريم في أكثر من موضع، لا مجال إلى نفيها؛ إذ تؤكّد - إذا شئنا - أزليّة الصّراع الحضاريّ بينهما، وهو صراع مبنيّ على الحقد، والحسد، والكراهيّة، والعداء للدّين الجديد، هذه حقيقة تاريخيّة مثبتة في القرآن، ثمّ في كتب التّاريخ الإسلاميّ.

هل أزليّة الصّراع - كما أثبتها القرآن - تفضي إلى استحالة نشوء تعايش وتسامح ووئام بين الغرب المسيحيّ والإسلام؟ أكيد أنّ للصراع مستويات متباينة وكلّ مستوى يمتلك قدرًا من العمق والتّعقيد حسب الارتباطات الّتي يقوم عليها.

هكذا، فعلى المستوى الاجتماعيّ أو الاقتصاديّ أو الأخلاقيّ، يمكن بلورة مجهود للتوليف بين الحضارتين الغربيّة والإسلاميّة، بكيفيّة تتيح لطرف مهيمن السّماح للآخر - المهيمن عليه - بممارسة طقوسه وأعرافه الحضاريّة، دون أن تكون لذلك ارتباطات مع المستوى «السّياسيّ» أو «العقائديّ» للطّرف المهيمن، كانت هذه تجربة أهل الكتاب مع محمّد ﷺ في المدينة.

على أنّ المستوى «النّفسيّ» غير قابل للرّصد، من حيث قدرته في كلّ حين على الإفلات من قبضة الطّرف المهيمن.

ممّا لا شك فيه؛ أنّ نشأة «الإسلام» - بمقارنتها مع المسيحيّة واليهوديّة - كانت نشأة سياسيّة موجّهة بمقاصد الشّرع (الوحي) في عمقها - على الأقل - مع تجربة الرّسول محمّد ﷺ، وبعد وفاته سينتقل مناط الفعل السّياسيّ؛ من مستوى الدّمج بين الوحي والرّسالة الّتي كان يمثّلها النّبيّ، إلى مستوى الرّسالة الّتي سيكفلها الاجتهاد الفقهيّ مع الخلفاء من بعده، ويشمل الاجتهاد - إضافة إلى تدبير الحياة الخاصّة بالمسلمين - تحديد طبيعة العلاقات مع الحضارات المجاورة، وعلى رأسها؛ اليهود والمسيحيّين، في إطار تحديد مجالين يؤطّران هذه العلاقة، هما: دار الإسلام ودار الحرب؛ حسب منطق القوّة، أو الهدنة والسّلم.

لا يمكن فهم الحروب الصّليبيّة إلّا بأنّها إنجاز أو نتاج للوضع النّفسيّ للمسيحيّين؛ ففي منظومة «شاتوبريان»، لم تكن الحروب الصّليبيّة عدوانًا؛ بل كانت مقابلًا مسيحيًا عادلًا لدخول عمر أوروبا[39]، هذا على المستوى النّفسيّ - السّرديّ، إذا شئنا، ممّا يثبت - في واقع الحال - المنهج الاستشراقيّ الّذي يُبنى في بعض مستوياته على تجييش هذا الجهاز النّفسيّ، بشكل «تناظريّ»، وبالتّأكيد على أزليّة الشّرق (الإسلام) وثباته، وعدم تحضّره وعنفه، في مقابل الغرب المتقدّم والمتحضّر، أما على المستوى السّرديّ - السّياسيّ؛ فتشخص حضارة الغرب المسيحيّ على خشبة المسرح، جاعلة من الإسلام؛ القضيّة المركزيّة، لبناء الغرب المسيحيّ «بالإرهاب، بوصفه؛ مشكلة دينيّة قبل كلّ شيء»[40].

هكذا، يشكّل ربط الإرهاب بالدّين رهانًا أساسيًا وجوهريًا، لتبخيس دعاوى الإسلام، ما دام أنّ هذا الأخير يشكّل الأساس المعياريّ المتين لحضارة الإسلام، ويسمح هذا الربط بين الإرهاب والدّين «بتعميم العنف على الدّين، وعلى المسلمين الممثّلين الفعليّين للدّين التّصوّريّ؛ حيث يصبح المسلمون - مهما كان فعل الإرهاب جزئيًا - مسؤولين أخلاقيًا كونهم مسلمين.

على المستوى النّقديّ؛ ينتقل المناط من نقد المسلمين الّذين لا يبذلون جهدًا في درء تهمة الإرهاب عنهم، إلى نقد الدّين الّذي يشكّل الرّهان الأساس[41] لبناء حضارة الغرب المسيحيّ وتقويمها، بناء نسق للمعنى يتّخذ صبغة مهيمنة[42] في علاقته بخطاب للمعنى، يولّد العنف والدّمار والإرهاب اللّذين؛ هم الإسلام في منظور

39- سعيد إدوارد، الاستشراق، مرجع سابق، ص ص 186- 187.

40- Uzma, Jamil, Reading power: Muslims in the war on terror discours, op,cit,p.33.

41- يتّخذ نقد الدّين الإسلاميّ من طرف أوروبا، غير ذاك النّقد الدّينيّ الذي بنت عليه أوروبا حضارتها، أعني؛ العلمانيّة كأساس حضاريّ لكونيّة الغرب.

42- ibid,. p 33- 34.

الغرب المسيحيّ، هذا هو رهان النّزعة الاستشراقيّة الجديدة في مستواها السّياسيّ، الّتي تمثلها اليوم - بوضوح تامّ - الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

هكذا؛ فكلّما كانت مواجهة الغرب للإسلام غير مباشرة، كلّما كانت فعّالة؛ حيث تسمح بالانتقال من إنشاء تصوّر خطابيّ للإسلام، إلى مستوى الفعل؛ الذي هو - هنا - الهيمنة السّياسيّة على العالم، وبناء «هيمنة كونيّة».

قوّة الاستشراق خطاب مهيمن، على مستوى التّمثيل والإنشاء، يسعى - بكلّ جهد - إلى تحديد الإسلام والمسلمين، وكيف يبرزون على ساحة الوقائع، من منظور الغرب المسيحيّ في الحاضر، وكيف سيكونون عليه في المستقبل.

نصل - هنا - إلى فكرة تكاد تكون شاملة للتّاريخ الإنسانيّ، وهي أنّ كلّ وضع مهيمن يكون مبنيًّا، وفق أدلوجة خطابيّة تخفي ما تخفي من الرّغبات والتّصورات والأهداف، وتبرز هذه الحقيقة - أكثر ما تبرز - في وسائل الإعلام الجماهيريّة، الدّوليّة الّتي تنبني - في جوهرها - على نزعة تناظريّة ثقافيّة هائلة، تحاول تقديم مشروعيّة لتصوّر حضاريّ غربيّ، في مقابل ثقافات مجاورة - متهافتة ولاإنسيّة - في جوهرها.

تسمح القوّة التّحليليّة للاستشراق الجديد، إضافةً إلى قدرته الإنشائيّة الهائلة، للذّات الإسلاميّة، في غياب هذه الذّات الفاعلة لتاريخها، تسمح بالرّبط بين الإسلام التّصوريّ والإرهاب، وهي حقيقة واقعيّة لا غبار عليها، هذا هو الرّهان الأساس، تنتهي مهمّة المستشرق الجديد عند هذا الحدّ، تاركًا الفرصة للخبراء السّياسيّين لتفعيل توصيات المستشرقين، على صعيد المنهج السّياسيّ، والبحث عن إمكانيّات لتوظيف هذا التّراث الاستشراقيّ التّوليفيّ.

4 - الإسلام والغرب: الاستشراق الجديد:

أمن أم ديمقراطيّة أم تطهير للإرهاب؟ الدّمج بين الخطاب والممارسة.

دلّت الصّفحات السّابقة مدى تضارب النّزعة الاستشراقيّة الجديدة للغرب تجاه الإسلام وتعقيدها، وكما اِستُدلّ على نمطيّة الأفكار الاستشراقيّة بصدد بقعة حضاريّة؛ هي الإسلام بعينه؛ فإنّ الصّفحات المتبقّية من هذا البحث، تحاول أن تبرز - بكلّ جهد نظريّ - الأبعاد السّياسيّة المهيمنة لخطاب فلسفيّ، ولنتاج متراكم من الجهد، يمتدّ من القرن التّاسع عشر إلى اليوم.

إذا كانت الحرب على الإرهاب، تختزل - اليوم - أوجه الصّراع الإيديولوجيّ - الحضاريّ بين الغرب والإسلام، وإذا كانت هذه العلاقة تؤشّر - بالفعل - على مشروع سياسيّ غربيّ؛ فإنّنا نعتقد، إضافة إلى لزوم

توضيح الأبعاد الحربيّة، السّياسيّة والجيو - سياسيّة، والاقتصادية المتشابكة، الّتي تتبدى في الشّرق الأوسط بشكل خاصّ، فإنّه يجب - تبعًا لذلك - أنّ نقدّر الأهميّة المحوريّة، لكيفيّة نشوء هذا الخطاب الأدبيّ في عموميّته، وكيف عُبّأت لشرعنته على صعيد المؤسّسات السّياسيّة المختصّة بقضايا الإرهاب.

على المستوى المنهجيّ (methodological approach)، يتجلّى الخطاب (discourse) على أنّه مكوّن منهجيّ، والخطاب السّياسيّ العموميّ - على وجه الخصوص - مجالًا لإرساء أفضليّة «معرفيّة» دون سواها؛ إذ يبدي الهويّة، وهي في طور التّشكّل والبناء والانحسار، وكيف يمكن المحافظة عليها، والقوّة وهي تكتسب شرعيّة على أرض الواقع، وكيف يمكن للإجماع - السّياسيّ والاجتماعيّ - أن يتشكّل، وأن ينتج أو يُعاد إنتاجه من منطلق أرض عاريّة جوفاء، ومن معياريّة فارغة المضمون.

تتمثّل وظيفة «الخطاب»، ونكاد نقول: خطورته، في إمكانيّة الخلق والإنشاء المنهجيّ، لممكنات لا وجود لها على أرض «الواقع».

لا يعدو الخطاب أن يكون «بنية تكوينيّة»، تسمح بخلق ممكنات لا حصر لها من التّأويلات، الّتي تسمح بقبول فعل ما من الأفعال، وجعله اعتياديًّا من قبل المجموع، من هنا؛ ربطه بنزعة الاستشراق - الجديدة، وعدّه حليفها المركزيّ.

فرضيّة نشوء إرهاب بين عشيّة وضحاها، تلغيه - بالضّرورة - هذه الاعتبارات المنهجيّة، ممّا يفترض - بدل ذلك - نشوء أو ضرورة نشوء خطاب ضدّ الإرهاب، ممّا يعني - كذلك - أنّ الدّمج بين «الخطاب» و«الممارسة»، فيما يتعلّق بالحرب على الإرهاب، متأصّلان في البنية التّكوينيّة لخطاب معياريّ مطبق.

ومثلما تحدّثنا عن الأدلوجة في علاقتها بالخوف آنفًا؛ فإنّنا نؤكّد - من جهة ثانية - على علاقتها الخفيّة مع «الخطاب السّياسيّ»؛ حيث يعدّ - هذا الأخير - تعميميًّا للمعنى (meaning)، يكون في خدمة القوّة (Power)[43]، بعبارة أدقّ: إنّ الأفعال الخطابيّة - على المستوى الأدلوجيّ - تمثّل بوجودها بناءات للمعنى، تسهم في إنتاج، وإعادة إنتاج، ثمّ تحويل علاقات الهيمنة داخل المجتمع[44]، تمتلك هكذا الأدلوجة قدرة وطاقة على أن تخترق آفاقَ مجتمع بعينه؛ لتشمل مجتمعات أخرى تبعًا لتصوّر معيّن لمعنى الحضارة.

وبقدر عمق التّفكير الأدلوجيّ في علاقته بالخطاب، بقدر فعاليّة أنساق المعنى الّتي تهيّج الهيمنة والقوّة، في مستوييها: السّياسيّ والحضاريّ، أكثر من ذلك الاقتصاديّ، ليست الأدلوجة - وفق هذا المعنى - مستقلّة

43- N. Fairclough, Media discourse (London: Edward Arnold, 1995), p 14.

44- N. Fairclough, Discourse and social change (Cambridge: Polity Press, 1992), p 87.

بذاتها، بقدر ما هي مشروعة، وتكتسب نسق معناها من الخطاب نفسه، كمنهج مستقلّ بذاته، ومكتنز لبنية حضاريّة مهيمنة.

هذه ممكنات للهيمنة الغربيّة المسيحيّة على الإسلام، قابلة للرّصد والتّتبع من خلال تحليل الخطاب المكتوب، والمنطوق - خاصّة - في الفترة التّاريخيّة الممتدّة ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م إلى سنة 2003م، وما بعدها، من خلال الصّحافة الجماهيريّة، والمناظرات السّياسيّة، وأقوال المستشارين الأمريكيّين في حقبة بوش الابن.

وهكذا تبرز بلاغة الاستشراق الجديد، على أنّها إنشاء جديد ومغاير، لما دأب عليه الاستشراق الحديث، في نقده لسلطة الغرب على الشّرق على أساس التّمثيل، وسواء تحدّثنا عن الخوف من الإسلام، على أنّه مستوى نظريّ، أو «الإرهاب» على أنّه مستوى تطبيقيّ، منظورًا إليه من الزّاوية الغربيّة؛ فإنّ الأهمّ من كلّ هذا هو الوعي بالارتباطات، الّتي تملي استعمال هذه المفاهيم دون سواها، وما يلاحظ؛ هو أنّ هذه الارتباطات الّتي تمليها ضرورات «التّناظر»، قبل كلّ شيء، ليست محايدة كما أنّ الحرب على الإرهاب، إضافة إلى عدم حياديّتها؛ فهي غير موضوعيّة، بيد أنّ الضّرورة الحضاريّة تستلزم - ولو على مضض - صناعة خطاب مقابل لها، هو الخطاب «ضدّ الإرهاب» الّذي يجعل الحرب على الإرهاب «قضيّة عادلة».

على سبيل الختام:

على صعيد «التّناظر» الّذي جعلناه مرتكزًا لبناء الحضارة؛ فإنّ البناء السّرديّ للهويّة الحضاريّة، بغضّ النّظر عن حاملها؛ فإنّها تحقّق الغرض النّهائيّ من انتشارها، وهو تمييز الغرب المسيحيّ المتحضّر عن عالم بربريّ ومتوحّش، إنّ هذه السّمة السّرديّة الحضاريّة الغربيّة المبنيّنة، بالخوف من الإسلام كحضارة مخالفة، هو بحقّ السّمة المميزة، الّتي لا انفكاك عنها في كل تصوّر للعلاقة بين الغرب والإسلام، ومهما يكن من تقدير لهذه السّمة؛ فإنّ خطابًا إسلاميًا وفقهيًا وفلسفيًا وعلميًا، ينبغي أن يجد لنفسه موطئ قدم، لتقديم تصوّر إيجابيّ حول الإسلام، بكونه حضارة إنسانيّة.

إن النّقد - طبعًا - هو الوسيلة الوحيدة للتّباعد عن أشكال الاتّهامات والتّحريفات، الّتي تطال حضارة الإسلام، بيد أنّ للنّقد - نفسه متطلّبات لا انفكاك عنها، لكلّ وعي بالحضارة يكون منطلقها الوعي بالأسس الخفية لكل خطاب اجتماعيا وسياسيا. لا تتقوّى حضارة الإسلام - مهما يكن - في علاقتها بحضارة الغرب، إلّا على أساس هذا «التّناظر» نفسه؛ الّذي يعلي كلمة الحقّ ويصدح بها «عقلانيًا».

المراجع المعتمدة:

بالعربيّة:

ـ القرآن الكريم.

ـ سعيد إدوارد، الاستشراق. المعرفة. السّلطة. الإنشاء، تعريب: كمال أبو ديب، مؤسّسة الأبحاث العربيّة، ط 7، 2005م.

ـ العروي عبد الله، مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثّقافيّ العربيّ، ط 5، 1993م.

ـ تشومسكي نعوم، أوهام الشّرق الأوسط، مطبعة فضالة، 2006م، تعريب: شيرين فهمي.

باللّغات الأجنبيّة:

– N. Fairclough, Discourse and social change (Cambridge: Polity Press, 1992)

– N. Fairclough, Media discourse (London: Edward Arnold, 1995.

– David C. Rapoport, Fear and Trembling: Terrorism in Three Religious Traditions, The American Political Science Review, Vol. 78, No. 3 (Sep., 1984), 658 - 677.

– Wolf, Maxie, orientalism and islamophobia as continuous source of discrimination, study program,2015.

– Uzma, Jamil, Reading power: Muslims in the war on terror discourse. Postdoctoral research fellow at the international centre for muslim and non - muslim understanding at the university of south Australia. Islamophobia studies journal. Volume 2, no.2, Full, 2014.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2017

جميع الحقوق محفوظة © 2017